- **(محاضرة 12) اللغة والتحليل النفسي1:**

- **الإيحاء النفسي للكلمة العربية:**

إنّنا نحن بني البشر نفكر، وننبعث بالكلمات، وسلوكنا في البيت، أو الشارع هو قبل كل شيء سلوك لغوي؛ لأن كلمات اللغة تقرر لنا الأفكار، والانفعالات، وتعيّنُ لنا السلوك كما لو كانت أوامر. بحيث إنّ للكلمات توجيه اجتماعي بَعِيدُ الأثر في المجتمع، فإنّ كلمة "البرّ" مثلا من أشرف الكلمات الموحِيَة التي تربى الأبناء، وتبعث على التعاون، والإخاء، في حين أن كلمة "الدم" تحمل شحنة عاطفية تجعل كثيرًا من الأشخاص يقتلون بلا رَوِيَّةٍ. إنّ كلماتنا التي نتحدث بها ونقرأهاُ تُعَيّنُ أخلاقنا، وسلوكنا الاجتماعي، فنحن فضلاء أو أَرْذَالٌ باللغة، ونحن عقلاء أو مجانين باللغة، ونحن علماء أو جهلاء باللغة.[1]

فلو أنّ شابًا ريفيًا قد نشأ، وتربى، وسمع بِأُذُنِهِ، وتكرر سماعه لكلماتِ: الثأر، والانتقام، والدم؛ فإن هذه الكلمات حين ينطق بها تصوّر له صورًا فكرية معيّنة، وتحمله على أن يسلك السلوك الإجرامي بقتل خصومه لِأَوَهَى الأسباب، بل إنه يفهم كلمات الشرف، والعرض، والسمعة، على غير ما يفهم الشاب الذي يسكن قلب المدينة؛ ولذلك ما هو أن يرى أخته تتحدث إلى أحد الشبان حتى تَسْتَطِيْرُ هذه الكلمات على عقله، وَتُلْهِبُ عاطفته؛ فيجمع إلى معانيها معاني الكلمات الأخرى: الدم، والثأر، والانتقام، فتجرّه إلى جريمة القتل!![2]

إذن؛ فالسياق الثقافي له دور مهمّ جدّا في تعبئة الكلمات وشحنها، لأنّ اللغة هي بنت السياق الإجتماعي فهو الذي يحمّل كلماتها مختلف المعاني والعواطف.

إنّ للغة خطر كبير في التوجيه والتكوين لعواطف الفرد وذهنيات المجتمع، فلو أنّ سيدة أنيقة جميلة تعتني بِهِنْدَامِهَا، وقوامها، قد اقتربت من سن الخمسين، ثم وجدت تَوَعُكًا في صحتها؛ فلما استشارت الطبيب قال لها: إن حالتها تُعَد طبيعية في سنها سن اليأس؟ ولو أننا استبدلنا بكلمتي سن اليأس سن الحكمة، أو سن النُضج؛ لكان لهذا المعنى الإنساني توجيه آخر نحو الأمل والتفاؤل.[3]

---

[1] انظر: البلاغة العصرية واللغة العربية: سلامة موسى، كلمات عربية للترجمة والنشر، جمهورية مصر العربية (د، ط)، ص:53.

[2] انظر: المرجع نفسه، ص:ن.

[3] انظر: المرجع نفسه، ص:53.

- **الكلمات في حقيقتها أفكار:**

إنّ الكلمات أفكار، فنحن لا نستطيع أن نفكر بلا كلمات أو ما يقوم مقامها من إيماءات باليد، أو إشارات بالعين، أو نحو ذلك، وهناك حقيقتان سيكولوجيتان:[1]

- **الحقيقة الأولى:** هي قوة الكلمة المتكررة في الإيحاء؛ فإننا نستطيع أن نُحْدِثَ إيحاءً لشخص آخر أو لأنفسنا؛ بكلمة مُكررة تحمل معنى أو توجيهًا، وهذا هو التَّنْوِيْمُ النفسي الذي يَحْمِلُ النائم على أن يسلك سلوكًا معينًا، فإذا تكررت كلمات مثل الدم، والثأر، والانتقام؛ أحدثت الإيحاء ثم الإجرام، ومعظم سلوكنا، بل ربما كله يعود إلى الكلمات التي تَعَوَدْنَاها منذ الطفولة.

- **الحقيقة الثانية:** أن الكلمة المنِيْرة؛ أي: التي تنير العقل بالمنطق، أو القلب بالبر، والشرف، والمروءة، هذه الكلمة المنيرة تمسح عن العقل المضطرب غَشَاوَةً، وكثيرًا ما يُشْفَى المريض بِمَحْضِ القوة المنِيرة الإنسانية التي في الكلمات التي يستعملها معه الطبيب.

إنّ شيخوخة العقل تبدو مبكرة عند المسنين من الأميين، ولكنها تتأخر، أو لا تبدو بتاتًا عند المتعلمين المثقفين؛ وعلّة ذلك تتضح أن الأفكار كلمات، وما دام المِسِنُ يعرف الكلمات؛ فإن عقله يحتشد بالأفكار؛ فلا يكون هناك مجال للخلط، أو الخوف، أو النسيان. أُنظر كلمة "مروءة" وما تحمله إلينا من المعاني السلبية، والايجابية التي تَكُفُ وَتُغْرِي، فليس من المروءة ألا نُغِيْثَ السائل المحتاج، أو نخون الأمانة، أو نَنْكُثَ العهد، ولكن من المروءة أن نتجاوز عن حقوقنا عند المحتاجين، وأن نُعِيْنَ العاجز وَنُسْعِفَ الملهوف. ثم انظر إلى كلمة "بر"، علاقة عائلية حميمة ما أشرفها وما أجملها. أو انظر إلى كلمة "الفُتُوَّة"؛ فإن هذه الكلمة لِمَا حملته من المعاني البَارَّة، بعثت أفرادًا في المجتمع العربي على تأليف جمعيات للخير والشهامة والمجد؛ فكان منهم فتيان يخدمون الفضيلة، ويرفعون أنفسهم إلى مستوى عالٍ من السلوك والأخلاق.[2]

إنّ هذه مثل هذه الكلمات (المروءة، والبر، والفُتُوَّةِ)؛ خدمت المجتمع العربي وَعَيَّنَتْ له أهدافًا من الشرف والسمو، وَبَنَتْ أخلاقه الشيء الكثير، ثم إنّه لا يمكن ترجمة هذه الكلمات إلى اللغة الإنجليزية؛ لأن لكل منها معنى حميمًا يتصل بالمجتمع، أو العائلة في جونا العربي، فإذا أضفت إلى هذه الكلمات كلمات أُخُرْ مثل: المجد، والشهامة، والنَّخْوَةِ؛ عرفت قيمة هذه الكلمات التي يعد كل منها شعارًا يهتدي به الفرد في مجتمعه. فهي تُحَفٌ لُغوية كل منها بمثابة المؤسسة الاجتماعية التي تبعث الخير، وتعمم الشرف أينما وجدت، وإذا كانت المجتمعات العربية القديمة قد

---

[1] انظر: البلاغة العصرية واللغة العربية، ص:55.

[2] انظر: المرجع نفسه، ص:84.

قصرت في فن الحكومة؛ لأنها لم تعرف البرلمان، أو المجلس البلدي، فإن هذه الكلمات قد استطاعت في أحايين كثيرة أن تُوْجِدَ المجتمع البار، وأن تُقِيْمَ العدل مكان الظلم.[1]

تأمّل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لأسامة بن زيد، وقد كساه قُبطية فكساها امرأته:"**أَخَافُ أَنْ تَصِفَ حَجْمَ عِظَامِهَا**"[2].

قال **الشريف الرّضي** في شرح هذا الحديث:"وهذه استعارة، والمراد أن القبطية برقتها تلصق بالجسم، فتبين حجم الثديين، والرادفتين، وما يشتد من لحم العضدين والفخذين، فيعرف الناظر إليها مقادير هذه الأعضاء، حتى تكون كالظاهرة للحظه، والممكنة للمسه، فجعلها عليه الصلاة والسلام، لهذه المحال كالواصفة لما خلفها، والمخبرة عما استتر بها؛ وهذه من أحسن العبارات عن هذا المعنى.[3]

أما **مصطفى صادق الرافعي** فإنه (عليه الصلاة والسلام) لم يقل: أخاف أن تصف حجم أعضائها، بل قال:"حجم عظامها"، مع أن المراد لحم الأعضاء في حجمه وتكوينه، وذلك منتهى السمو بالأدب، إذ ذكر "أعضاء" المرأة في هذا السياق، وبهذا المعرض، هو في الأدب الكامل أشبه بالرفث، ولفظة (الأعضاء) تحت الثوب الرقيق الأبيض تنبه إلى صور ذهنية كثيرة هي التي عدها الرضي في شرحه، وهي تومئ إلى صورة أخرى من ورائها، فتنزه النبي –صلى الله عليه وسلم– عن كل ذلك، وضرب الحجاب اللغوي على هذه المعاني السافرة، وجاء بكلمة "العظام"؛ لأنها اللفظة الطبيعية المبرأة من كل نزغة، لا تقبل أن تلتوي، ولا تثير معنى، ولا تحمل غرضًا؛ إذ تكون في الحي والميت، بل هي بهذا أخص؛ وفي الجميل والقبيح، بل هي هنا أليق؛ وفي الشباب والهَرَم، بل هي في هذا أوضح، والأعضاء لا تقوم إلا بالعظام، فالمجاز على ما ترى، والحقيقة هي ما علمت.[4]

---

[1] انظر: البلاغة العصرية واللغة العربية، ص:83.

[2] حديث حسن: أخرجه الإمام أحمد في مسنده، والطبراني في معجمه، عن محمد بن أسامة بن زيد، أن أباه أسامة رضي الله عنه قال: كساني رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قبطية كثيفة كانت مما أهداها دحية الكلبي (رضي الله عنه)، فكسوتها امرأتي، فقال لي رسول الله – صلى الله عليه وسلم –:"ما لك لم تلبس القبطية؟" قلت: يا رسول الله! كسوتها امرأتي. فقال لي رسول الله – صلى الله عليه وسلم –:"مرها فلتجعل تحتها غلالة؛ إني أخاف أن تصف حجم عظامها". الغِلالة: شعار يلبس تحت الدثار.

[3] انظر: المجازات النبوية: للشريف الرضي، تحقيق: د، طه محمد الزيتي، منشورات مكتبة بصيرتي، (د، ط)، (د، ت)، ص:166.

[4] انظر: السمو الروحي الأعظم والجمال الفني في البلاغة النبوية: مصطفى صادق الرافعي، تحقيق: وائل بن حافظ بن خلف، دار البشير للثقافة والعلوم، ط1، (د، ت)، ص:65-68.